الأفق الصوفى

والحياة الروحية فى رمضان

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقى سرور

تلك هى الكلمة التى افتتح بهـا سيادته محاضرات شهر رمضان بسرادق مشيخة الطرق الصوفية .

أيها السادة :

أحب أن أطوف معكم فى تلك الليلة الرمضانية المشرقة فى جولة ، حول التصوف وحول منهجه ، وحول أهدافه ورسالته .

وبين التصوف وبين الصيام صلة لا تنقطع ولا تنفصم أبدا . . . وكما اقترن شهر رمضان بالقرآن ، ، فهو يقترن أيضا بالتصوف . . . وإذا كان المسلم يأخذ نفسه فى رمضان بالعزيمة وبالإرادة وبالمراقبة وبالمجاهدة ويحاول ما استطاع أن يرتفع فى يومه وفى ليله إلى مقام الإحسان ليعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه .

إذا كان المسلم العادى يفعل ذلك فى رمضان . فإن الصوفى أيها السادة فى رمضان دائم .

أترون كيف يكون المسلم الصائم العابد المسبح المتهجد الذى يعيش ليله ونهاره فى المراقبة والمحاسبة ومراعاة الأنفاس وضبط الحواس .

أترون هذه الصفات ، صفات الصائمين المثاليين إنها أيها السادة . . . بعض صفات الصوفى ، بعض صفاته الدائمة الملازمة التى لا تفارقه أبدا .

فالتصوف . . هو الكمال فى الدين والدنيا هو استهداف المثل الأعلى فى كل أمر من أمور الدين والدنيا ، هو التطلع إلى أفق أبهى وأسمى مما اصطلح عليه الناس .

فالمتصوفة يمشون فى فهمهم لتعاليم دينهم ، وفى فهمهم لمثاليات الحياة خطوات

أبعد مما يخطوا سواهم ، ويرتفعون فى فهمهم ارتفاعا أعلى مما تحلق فيه أجنحة غيرهم .

فإذا تحدث الناس ، عن الصدق أو عن الأمانة مثلا ، مشى الصوفية بمعناهما إلى أفق أعلى من كل أفق فكر فيه غيرهم ، حتى ليتحدثون عن الصدق فى همسات النفس وخفايا الصدور ، وعن الأمانة فى لحة العين وخاطرة الفكر .

وفى الصلاة وفى الصيام وفى الزكاة ، يمشى الصوفية أميالا أبعد مما يمشى سواهم .

سأل الإمام مالك ، شيبان الراعى عن قيمة القدر المخصص للزكاة فى مائة من الأبل .

فقال شيبان عندنا أم عندكم ؟ قال مالك : وهل هناك ما يقال له عندنا وعندكم ؟ فقال شيبان الصوفى : نعم ! ! عندكم فى كل مائة خمسة ، وعندنا نبذل المائة .

وقال صوفى لرجل من رجال الحديث : إننى أطالبك بزكاة الحديث ، قال : وما زكاة الحديث ؟ قال : أن تفعل وأن تتخلق بخمس أحاديث من كل مائة تحفظها .

هذا مثال أيها السادة يصور لنا الفروق الدقيقة بين المنهج الصوفى الأخلاقى العملى وبين غيره من المناهج الإسلامية النظرية ،

وفى المعانى النفسية والوجدانية أيضاً ، يرتفع الصوفية فى الفهم ارتفاعا لا يطاولهم فيه غيرهم .

فإذا تحدث الناس عن الحرية مثلا تحدثوا ، عن حرية التعبير وحرية الرأى وحرية التفكير .

ويأتى الصوفية فيضيفون إلى هذه المعانى الخاصة بهم ، الخاصة بأفقهم العالى وبمثالياتهم الرفيعة .

يقول الإمام سهل بن عبد الله التسترى : الحرية هى حرية القلب ، فليس بحر من استعبدته شهواته ، واسترقته نزواته وملكته أهواؤه : وصدق رسول الله ، « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة » .

فالحرية عند المتصوفة ، هى حرية شاملة ، فليس بحر من استعبدت أوطانه ، أو هانت عقيدته أو ذلت مبادئه .

ورضى الله عن الإمام معروف الكرخى إذ يقول : الأحرار هم الذين يقولون لا إله إلا الله ويتذوقونها .

لا إله إلا الله ، فلا خضوع لظالم ، ولا رهبة من مستبد ولا ذل أمام قوة من قوى الأرض .

يقول الإمام الشعرانى فى عزة المؤمن : لو انفض الناس جميعا من حولى ، واهتزت شعرة منى فقد كفرت بالله .

ويقول أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فى غطرسة الملك لابن البيطار الصوفى : أنا عبدالملك فارفع حوائجك إلىّ .

فيقول له ابن البيطار فى عزة المتصوف الأبى : وأنا أيضا عبد الملك فهلم نرفع حوائجنا إلى من أنا وأنت له عبدان .

ويقول أبوحازم الصوفى : إنما بينى وبين الملوك يوم واحد ، أما أمس . . فلا يحدون لذته ، وأنا وهم من غد على وجل ، وإنما هو اليوم . . فما عسى أن يكون اليوم .

ويقول إبراهيم بن أدهم : نحن فى لذة لو عرفها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف.

وسر هذه القوة ، وهذه العزة . وهذه الحرية العريضة أيها السادة . . أن الصوفى قد صعد فوق دنياه وارتبط ارتباطا مباشرا بالله سبحانه وتعالى .

ومن هنا كانت .. تلك العظمة النفسية الشامخة التى امتاز بها المتصوفة جميعا .

لقد تحرروا من كل شىء . وارتفعوا فوق كل شىء لأنهم عبدوا الله . . وذاقوا لذة العبادة ولذة القرب والوجد والأنس .

لقد أضاءوا مصابيح الباطن فشاهدوا على أنوارها ، مالا تراه إلا عيونهم .

يقول القطب على الخواص . أنت عبد لما تشتهى . وعبد من تخاف وعبد من تطمع فيه . فمن ارتفع فوق الاشتهاء والخوف والطمع . أصبح عبد الله .

ويمر الإمام الجنيد على رجل فيراه مهموما مكروبا . فيبتسم له ويقول : يا أخى: أتخشى أن ينقص من أجلك ساعة . قال كلا .. قال : أيفوتك رزق قدره الله لك . قال كلا ... قال أيحدث لك شىء لم يقدره الله لك قال كلا ... قال فعلام الهم والحزن ؟!!

هذا الذوق الصوفى . وهذا الإيمان الصوفى : هو الذى أوجد فى الأفق الصوفى هؤلاء الأعلام الهداة الذين قادوا الإنسانية إلى الله ... وإلى الكمال وإلى عز الدنيا وعز الآخرة .

وهذا الذوق الباطنى ، وهذا الفهم العالى ، هو الذى شكل التراث الثقافى الصوفى ، وجعله الوجه المضىء للفكر الإسلامى العالمى .

هو الذى أمد الثقافة الإسلامية ... بتلك الينابيع العذبة ... الدافقة ... من العلوم والمعارف ، والأذواق والإلهامات الصوفية .

ونضرب الأمثال .

يقول الله سبحانه وتعالى : « وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ... ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

يفهم الناس من هذه الآية : أن المراد بالقوة . هو عدة الحرب المتطورة ... سواء كانت خيلا وسيوفا ، أو طائرات وأساطيل ... ويفهم الصوفية ما يفهم الناس ... ثم يمشون خطوات إلى أفقهم ، فيضيفون إلى عدة السلاح قوى الروح وعدة الإيمان ، وسلاح الطاعة والعبادة .

ومثل آخر ... إذا بذل الناس من عونهم للناس باعتبار أن هذا البذل من مكارم الأخلاق وأدب النفس وواجبات الإنسانية .

جاء المتصوفة فمشوا خطوات إلى أبعد وصعدوا درجات إلى أعلى .

يقول حجة الإسلام الإمام الغزالى .

« إن الإنسان ليس عليه أن يساعد الإنسان والحيوان فحسب ، بل عليه أن يمد يده بالخير إلى كل شىء فى الوجود .

فيساعد النبات فى نموه ، والماء فى جريانه فيزيل العقبات من أمام هذا وذاك

هذا هو التصوف أيها السادة .

إنسانية رفيعة . وعبادة وطاعة . وحب يشمل كل شىء فى الوجود .

وتصعيد لكل عمل إلى الله وتفوق ايمانى ، وكمال خلقى ، وعمل إيجابى ، وطهارة قلبية وعزة وحرية ، وتفوق وسيادة ووحدة وأخوة ، ومحبة ورحمة ، وجلال يمشى فى مواكب من نور الله ومن رضاه ومن هداه .

أجل أيها الصوفية: أنتم كما يقول السيد المسيح: ملح هذه الأرض : وفى أعناقكم الرسالة التى حملها الأنبياء كافة .

فارفعوا أعلامكم ، واملأوا الدنيا . ذكرا وتسبيحا وإيمانا ويقينا .

وانشروا نوركم لتمسحوا عن وجه الدنيا غبار هذه الوثنية المادية الطاغية .

إنكم إن تفعلوا تنصروا الله وتعزوا كتابه وتنقذوا الإنسانية من هول ما أعدلها شياطين الإنس والجن .

وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين .